المحاضرتان الأولى والثانية:النحو العربي النشأة والتقعيد

1-نشأة علم النحو:

ظهرت العربية لغة مكتملة مبنى ومعنى نقية سليمة، وترعرعت في شبه الجزيرة العربية مذ وصل إلينا أول نص عربي يعود إلى العصر الجاهلي،وعُرِف متكلموها من العرب آنذاك بالفصاحة والبيان والإيجاز والبلاغة،على الرغم من شظف العيش وقساوة الحياة، على أنّه كانت لهم أسواق للغناء وقرض الشعر ومنتديات للأدب ، إلى جانب ما تعنى به من متطلبات الحياة ومقتضيات المعيشة[1]، كسوق عكاظ بين النخلة والطائف، ومجنّة بمر الظهران، وذي المجاز خلف عرفة[2]،فكان لهم-والحال هذه- أن اختاروا من لغات العرب المختلفة، واصطفوا ما استحسنوه من اللغات حتى استقروا على لغة متفق على التعبير بها [3]، وبقيت كذلك إلى أن بزغ نور الإسلام وتنزل القرآن الكريم، ودخل الناس في هذا الدين أفواجاً، وشهدت الجزيرة العربية فتوحات واسعة، وتتابعت إلى عهد الخلفاء الراشدين، وقد عزم الأعاجم الذين اختلطوا بالعرب وتصاهروا معهم تحت راية الإسلام على تعلم العربية والقرآن، واضطروا إلى الاندماج والامتزاج، الأمر الذي أدى إلى «تسرّب الضعف إلى نحيزة العربي وسليقته»[4]، وفشا اللحن و تجذّر في لغتهم وانتشر بين ظهرانيهم.

من هنا عُدّ اللحن الدافع الأول للمبادرة في تدوين اللغة، والتفكير بجد في وضع قواعد تضبط الألسن، وتحفظ اللغة وتحد من انتشار اللحن والخطأ.

1-1-ظهور اللحن:

اللحن في اللغة الخطأ، والتلحين التخطئة،واللحن بفتح الحاء الفطنة وبسكونها الخطأ...ولحن له لحناً قال له قولاً يفهمه عنه،واللحن اللغة كذلك[5] .

---

[1] -ينظر نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة،محمد الطنطاوي،دار المعارف،ط2، ص13 ومن تاريخ النحو،سعيد الأفغاني،دار الفكر، ص7

[2] -ينظر نفسه،ص13

[3] ينظر من تاريخ النحو،ص7

[4] -نشأة النحو،ص15

[5] -لسان العرب مادة (لحن) دار صادر،بيروت

واللحن في الاصطلاح هو «مغايرة الشيء للقاعدة التي ينبغي ان يكون عليها»[1].

ولقد بدأ اللحن يتجلى في كلام العرب منذ عهد النبي عليه الصلاة والسلام فقد روي أن رجلاً لحن بحضرته فقال "أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل"،ورووا أنّ أحد ولاة عمر رضي الله عنه كتب إليه كتاباً لحن فيه، فكتب إليه عمر :أن قنع كاتبك سوطاً[2] ،وقال ياقوت: ومر عمر بن الخطاب رضي الله عنه على قوم يسيئون الرمي فقرعهم فقالوا "إنا قوم متعلمين" فأعرض مغضباً وقال :"والله لخطؤكم في لسانكم أشد علي من خطئكم في رميكم"[3]، ويذكر ابن جني أيضا حديث علي رضي الله عنه مع الأعرابي الذي أقراه المقرئ﴿ أنّ الله بريء من المشركين ورسوله﴾[التوبة/03] حتى قال الأعرابي برئت من رسول الله فأنكر ذلك عليّ عليه السلام، ورسم لأبي الأسود من عمل النحو ما رسمه»[4]،وقال ابن قتيبة: سمع أعرابي مؤذنا يقول أشهد أنّ محمداً رسول الله بنصب رسول، فقال ويحك يفعل ماذا؟»[5].ومن شناعة اللحن كان أبو بكر الصديق يقول: لأن أقرأ فأسقط أحب إلي من أقرأ فألحن»[6].

على أنّ الرواية المشهورة في اللحن هي قصة بنت أبي الأسود حينما دخل عليها أبوها في يوم حار بالبصرة، فقالت له "**يا أبت ما أشد الحر**" بالرفع في أشد، فظن أبو الأسود أنها تسأله وتستفهم منه أي زمان الحر أشد؟ فقال لها شهرا ناجر فقالت يا أبت إنّما أخبرتك ولم أسألك"[7].

ويروى أيضاً أنّ رجلا دخل على زياد فقال له: "**إنّ أبينا هلك وإنّ أخينا غصبنا على ميراثنا من أبانا**"، فقال زياد:" ماضيعت من نفسك أكثر مما ضاع من

---

[1] –نشأة النحو العربي في مدرستي البصرة والكوفة،طلال علامة،دار الفكر اللبناني بيروت،ط1، 1992م،ص64

[2] –ينظر الخصائص ابن جني، تح عبد الحميد هنداوي ،دار الكتب العربية بيروت،ط1424،2هـ/2003م ج1،ص396

[3] –ينظر نشأة النحو،ص16

[4] –الخصائص ،ج1،ص396

[5] –نشأة النحو،ص17

[6] –من تاريخ النحو،ص8، 9

[7] –ينظر نفسه،ص10

مالك"[1]،ويروي الجاحظ أنّ أول لحن سمع بالبادية :هذه عصاتي(بدل عصاي) وأول لحن سمع بالعراق:حيٍّ على الفلاح (بكسر الياء بدل فتحها)[2]،ويروي أيضاً فيقول: قدّم رجلٌ من النحويين رجلاً إلى السلطان في دَين له عليه، فقال: "أصلح الله الأمير لي عليه درهمان"، فقال خصمه لا والله أيها الأمير إنْ هي إلاّ ثلاثة دراهم، ولكن لظهور الإعراب ترك من حقه درهماً»[3] ،وروى أبو الحسن أن الحجاج كان يقرأ:"إنا من المجرمون منتقمون"،وقد زعم رؤبة بن العجاج وأبو عمرو بن العلاء أنهما لم يريا قرويين أفصح من الحسن والحجاج»[4] .

لهذا كله عزم أولوا العلم آنئذ أن يضعوا قيودا ليصدوا هذا السيل الجارف الذي كاد أن يجرف اللغة العربية، ويتسلط على كلام الله –وما كان أن يقع– وعلى الحديث الشريف، لولا دهاء الخلفاء وعلماء العربية الذين اضطلعوا بوضع قواعد النحو، فكان السبب المباشر لظهوره هو اللحن، ولله دُرُّ ابن خلدون الذي لخص لنا سبب ظهور النحو فقال: « فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقي إليها السمع من المخالفات التي للمستعربين من العجم والسمع ابو الملكات اللسانية، ففسدت بما القي إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع وخشي أهل الحلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا، ويطول العهد فينغلق القرآن والحديث على المفهوم فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه منها بالأشباه مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع، ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات فاصطلحوا على تسميته إعراباً وتسمية الموجب لذلك التغير عاملاً وأمثال ذلك وصارت كلها

---

[1] –ينظر من تاريخ النحو،ص11

[2] –ينظر البيان والتبيين الجاحظ،تح مصطفى أبو المعاطي،دار الغد الجديد،القاهرة،ط1، 1439هـ/2019م ج2،ص124

[3] –المصدر نفسه،ج2،ص123

[4] –نفسه،ج2،ص124

اصطلاحات خاصة بهم فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو »[1]

2-وضع النحو وواضعه:

لقد كان وضع النحو بالعراق في صدر الإسلام لوقوعه على حدود البادية ملتقى العرب، وهو البلد الذي انتشر فيه اللحن، ثم نما وتدرج تطوراً حتى اكتملت أبوابه على أنّ نشأته كانت عربية محضة في البداية، وأنّه لا يوجد في كتاب سيبويه إلّا ما اخترعه هو والذين تقدموه، لكن لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان في بلاد العراق تعلموا أيضا شيئا من النحو»[2].

وأما عن واضعه فتكاد المصنفات تجمع على أنّ واضعه هو أبو الأسود الدؤلي(ت69هـ)، بطلب من عليّ كرّم الله وجهه، حينما ألقى إليه شيئا من أصول هذا النحو، ثم قال له انح هذا النحو فسمي الفن نحواً»[3]،ويشير أبو الطيب اللغوي إلى أنّ زياداً قال له: قد فسدت ألسنة الناس وذلك أنهما سمعا رجلاً يقول سقطت عصاتي، فدافعه أبو الأسود...وكان أول من رسمه، فوضع منه شيئاً جليلاً حتى تعمق النظر بعد ذلك وطولوا الأبواب»[4].وقيل إنّ أبا الأسود قد وضع علم النحو ليتعلم بنو زياد لأنهم كانوا يلحنون في كلامهم، وقد طلب منه زياد ذلك وكان أبو الأسود آنئذٍ اعلم الناس بكلام العرب[5].

ومما يحتج به في نسبة وضع النحو إلى أبي الأسود ما رواه الطنطاوي عن ابن النديم أنّ رجلاً بمدينة الحديثة اسمه محمد بن الحسين كان جمّاعة للكتب، وقد آلت إليه خزانة صديق له كان مشتهراً بجمع الخطوط القديمة، قال ابن إسحاق:فرأيتها

---

[1] -مقدمة ابن خلدون،تح عبد الله محمد الدرويش ،دار يعرب ،دمشق ط 1 ،1425هـ/2004م،ج2،ص368، 369

[2] -نشأة النحو،ص22

[3] -من تاريخ النحو،ص27

[4] -مراتب النحويين ،ابو الطيب اللغوي،تح محمد أبو الفضل إبارهيم،المكتبة العصرية،بيروت،1430هـ/2009م،ص21

[5] -ينظر مراتب النحويين،ص21، 22

وقلبتها فرأيت عجباً إلاّ أنّ الزمان قد أخلقها وعمل فيها عملا أدرسها...ورأيت ما يدل على أنّ النحو عن أبي الأسود ماهذه حكايته، وهي أربع ورقات وأحسبها من ورق الصين ترجمتها:هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر وتحت هذا الخط بخط عتيق هذا خط علان النحوي وتحته هذا خط النضر بن شميل »[1] .

على أنّ الفضل يعود أيضا لأبي الأسود في ابتكاره لشكل المصحف الشريف حفظا له وللغته الشريفة[2].

يتضح مما سبق بيانه أنّ أبا الأسود الدؤلي هو من وضع لبناته الأولى، ثم تطور شيئا فشيئا، ونضج في زمن قصير، وكان الباعث على ذلك حاجة العرب لعلم ينقذ العربية من براثن اللحن، حتى تم وضعه في العصر الأموي ،وما إنْ حلّ العصر العباسي حتى كان النحو يدرس دراسة واسعة في البصرة والكوفة، على أنّه كان في البصرة قبل الكوفة، ولم تشتغل به الكوفة إلاّ بعد قرن من الزمن لأنّها كانت تُعنى برواية الأشعار والأخبار[3]،على أنّ هناك قسما من النحاة أخذ عن أبي الأسود مباشرة وكانت لهم اليد الطولى في تقعيد هذا العلم، فقد أخذ عنه يحيى بن يعمر وعنبسة الفيل وميمون القرن ونصر بن عاصم وعطاء بن أبي الأسود وأبو نوفل بن أبي عقرب، ثم أخذ عنهم علماء البصرة بعد ذلك طبقة بعد طبقة[4].

وعليه يمكن إجمال أهم تلك الطبقات كي تتجلى بوضوح بداية التقعيد النحوي على أصولها،فقد سبق الحديث عن تلاميذ أبي الأسود، و أما الطبقة التي تليها فقد كانت أوفر حظا، إذ يعود لها الفضل في توسع مباحث هذا العلم وإضافة كثير من القواعد ووضع الأصول، واستفحل الجدل النحوي في القضايا والمسائل النحوية وتمكن أصحاب هذه الطبقة من التصنيف فيه، كالذي اضطلع به عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي(ت117هـ)، يقول فيه أبو الطيب اللغوي: «عبد الله أعلم أهل

---

[1] –نشأة النحو،ص28، 29 وينظر الفهرست، ابن النديم،رضا تجدد،ج1،ص46

[2] ––ينظر نشأة النحو،ص31

[3] –ينظر نشأة النحو ،ص36

[4] –ينظر من تاريخ النحو،ص31، 32

البصرة وأعقلهم ففرع النحو وقاسه وتكلم في الهمز حتى عمل فيه كتاب مما أملاه وكان رئيس الناس وواحدهم »[1]،ومنهم كذلك أبو عمرو بن العلاء وهو أعلم الناس «بالعربية والشعر ومذاهب العرب»[2]،أخذ النحو عن نصر بن عاصم، عرِف بالقراءات، ونبغ في لهجات القبائل، ومما يروى في هذا السياق أن عيسى بن عمر زاره يوما، فقال له كيف تجوز (ليس الطيب إلا المسكُ)بالرفع، فقال أبو عمرو« نمت يا أبا عمر و أدلج الناس ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب، وليس في الأرض تميمي إلا وهو يرفع، ثم أرسلا اليزيدي وخلفاً الأحمر للتثبت من العرب فكان كما أخبر أبو عمرو، فأخرج عيسى خاتمه من يده وقال ولك الخاتم بهذا والله فقت الناس»[3]،ولم يترك أبو عمرو مصنفا مكتوباً لأنّه أحرقها لما تنسك واستقر للعبادة.

ومن أصحاب هذه الطبقة أيضاً عيسى بن عمر(ت149ه)أخذ النحو عن أبي عمرو بن العلاء كان أفصح الناس وأشهرهم في استعمال الغريب، من ذلك قوله لما ضربه عمر بن هبيرة بالسياط : « والله إنْ كانت إلاّ أُثَيَّاباً في أُسَيْفاطٍ قبضها عشَّارُوك»[4].

من هنا يتبيّن ما لهذه المرحلة من تفوق وتطور، فقد وفقوا إلى ترسيخ فكرة التعليل وبخاصة عند ابن أبي إسحاق الحضرمي، ولاسيما القياس عنده، ووافقه في ذلك عيسى بن عمر حتى استقر لدى الناس كثير من أصول وفروع هذا العلم[5] .

وقبل أن نتطرق إلى بداية التصنيف النحوي لدى نحاة الطبقة التالية (الخليل بن أحمد وسيبويه ومن تلاهما)، حري بنا أن نتعرف على بعض الاصطلاحات التي تخص هذا العلم كالنحو والإعراب والكلام وما يتألف منه، بعد أن تعرفنا على اللحن.

---

[1] –مراتب النحويين،25

[2] –نفسه،ص28

[3] –نشأة النحو ،ص76

[4] –مراتب النحويين،ص33

[5] –ينظر نشأة النحو ،ص39

3-مفهوم النحو:

للنحو معان كثيرة في اللغة، منها القصد كقولهم: نحوت نحوك، والصرف مثل قولهم: نحوت بصري إليه؛ أي صرفت، وبمعنى المثل، تقول: مررت برجل نحوك أي مثلك،والجهة والنوع والبعض والتحريف[1].

وأما النحو في الاصطلاح فله تعريفات عدة، على انّه قد اصطلح عليه بمصطلحات أخر قبل استقرار مصطلح النحو، فقد كان يسمى في كتب التراجم والطبقات بالعربية، يقول القفطي في ذكر أول من وضع النحو: «قال أبو الأسود الدؤلي رحمه الله:دخلت على أمير المؤمنين علي عليه السلام فرأيته مطرقاً مفكراً فقلت فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟فقال سمعت ببلدكم لحناً فأردت أن أصنع كتاباً في أصول العربية...»[2]وظل هذا المصطلح هو السائد حتى جاء الخليل، فكان أول عهد الناس بإطلاق المصطلح (النحو) على هذا العلم»[3]حينما قال:

بطل النحو جميعاً كله * غير ما أحدث عيسى بن عمر**

ذاك إكمال وهذا جامع * فهما للناس شمس وقـــــمر**

ثم تداوله الناس من بعده[4]،وعرفه النحاة بعد ذلك،فقد ذكر ابن السراج(ت316هـ)أنّ النحو «إنّما أريد به أن ينحو المتكلم إذا تعلمه كلام العرب وهو علم استخرجه المتقدمون من استقراء كلام العرب حتى وقفوا منه على الغرض الذي قصده المبتدئون بهذه اللغة »[5].،ويجبأ علينا ابن جني في القرن الرابع بتعريف آخر للنحو بأنّه «انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم وإن شذ بعضهم عنها رد به

---

[1] -ينظر لسان العرب،مادة(نحا)

[2] -إنباه الرواة على أنباه النحاة،القفطي تح محمد أبو الفضل إبراهيم،دار الفكر العربي القاهرة،ط1406،1هـ/1986م،ج1،ص39

[3] -النحو العربي نشأته تطوره مدارسه رجاله،صلاح رواي،دار غريب،القاهرة،2003م،ص48

[4] -ينظر النحو العربي المرجع السابق،ص48

[5] -الأصول في النحو ابن السراج، تح عبد الحسين الفتلي،مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ،ط4، 1420هـ/1999م،ج1،ص35

إليها»[1]،ولا شك أن في تعريف ابن جني للنحو نظرة شمولية للعربية،كما نلمس فيه اعتباراً دلالياً وضعياً في تسميته، وهو ما توضحه العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للفظ (النحو)، وهو القصد كما بيّن ابن جني[2] .

4-الإعراب:

الإعراب لغة الإبانة، قال عبد الرحمن الأنباري : «أعربَ الرجلُ عنْ حُجَّتِه إذَا

بيَّنَهَا ومنه قوله صلى الله عليه وسلم:الثّيّبُ تُعربُ عَن نَفْسِهَا أَي تُبيّنُ وتُوضِحُ»[3] .

وفي الاصطلاح «هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ، ألا ترى أنّك إذا سمعت أكرم سعيد أباه وشكر سعيداً أبوه علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول، ولو كان الكلام شرجا واحداً لاستبهم أحدهما من صاحبه» [4].

ويقول ابن هشام في نصه المشهور: « الإعراب أثر ظاهر أو مقدر يجلبه العامل في آخر الاسم المتمكن والفعل المضارع»[5]،و قال الأنباري: « أمّا الإعراب فحده اختلاف أواخر الكلم باختلاف العوامل لفظا أو تقديراً»[6].

5-الكلام وما يتألف منه:

5-1-الكلام:

الكلام في اللغة يدل على معانٍ منها:

1-الحدث وهو التكليم كقولهم أعجبني كلامُك زيداً أي تكليمك إياه[7].

---

[1] -الخصائص ابن جني ،ج1،ص88

[2] -ينظر المصطلح اللغوي في كتاب الخصائص لابن جني بحث في مرجعيات الوضع والاستعمال،سليم عواريب، نور نشر ،ألمانيا،ط1، 2019م،ص289

[3] -أسرار العربية، الأنباري أبو البركات، تح محمد حسين شمس الدين ،دار الكتب العلمية ،لبنان ،ط2، 2010م ص31

[4] - الخصائص، ، ج1،ص89

[5] -شرح شذور الذهب،ابن هشام الأنصاري ومعه منتهى الطلب بتحقيق شرح شذور الذهب ورحلة السرورإلى إعراب شواهد الشذور تأليف بركات يوسف هبود راجعه يوسف الشيخ محمد البقاعي،دار الفكر لبنان،ط1، 1414هـ/1994م،ط2، 1419هـ/1998م،ص54

[6] -أسرار العربية،ابن الأنباري،ص32

[7] -شرح شذور الذهب،ص48

2-«ما في النفس مما يعبر عنه باللفظ المفيد وذلك كأن يقوم بنفسك معنى (قام زيد)أو (قعد عمرو) ونحو ذلك فيسمى الذي تخيلته كلاماً»[1].

3-« ما تحصل به الفائدة سواء كان لفظاً أو خطاً أو إشارة أو ما نطق به لسان الحال، والدليل على ذلك في الخط قول العرب القلم أحد اللسانين»[2] .

أما في الاصطلاح فهو «قول مفيد مقصود»[3]،وهو «اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها»[4].

وعرّفه ابن الأنباري بأنّه «ماكان من الحروف دالاً بتأليفه على معنى يحسن السكوت عليه»[5].

وعرّفه الزمخشري بقوله: «والكلام هو المركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى»[6].

5-2-الكلمة:

يشير النحاة إلى أنّ الكلمة في اللغة تدل على الجمل المفيدة، قال تعالى: ﴿كلا إنها كلمة هو قائلها﴾إشارة إلى قول القائل﴿رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾[7][المؤمنون/99].

أما اصطلاحا فهي «قول مفرد»[8]،وعند ابن عقيل «هي اللفظ الموضوع لمعنى مفرد»[9]،وقد يقصد بها الكلام، كقولهم في "**لا إله إلاّ الله**" كلمة الإخلاص»[10].

وللكلمة ثلاث لغات:**كَلِمَةُ** وهي الفصحى وهي لغة أهل الحجاز،و**كِلْمَةٌ** و**كَلْمَةٌ**

---

[1] -شرح شذور الذهب ،ص48

[2] -نفسه،ص49

[3] -نفسه،ص46

[4] -شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك،ابن عقيل،المكتبة العصرية،بيروت،1424هـ/2003م،ج1،ص19

[5] -أسرار العربية،ابن الأنباري أبو البركات ،ص23

[6] -المفصل،الزمخشري،ص32

[7] -ينظر شسرح شذور الذهب،ص24

[8] -نفسه،ص23

[9] -شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك،ج1،ص20

[10] -نفسه،ج1،ص20

وهما لغتا تميم، وجمع الأولى:**كِلْمٌ** والثانية:**كَلْمٌ**[1].

5-3-الكلم:

وهو «اسم جنس واحده كلمة وهي إما اسم وإما فعل وإما حرف...والكلم ما تركب من ثلاث كلمات فأكثر كقولك إن قام زيد»[2]،وقد يتفق الكلام والكلم كقولنا :" قد قام زيد" ،فهو كلام لأنّه يفيد معنى يحسن السكوت عليه، وكلم لأنّه تركب من ثلاث كلمات،أما إنْ قلنا: إنْ قام زيد" ،فهو كلم وليس كلاماً،و إنْ قلنا:" زيدٌ قائمٌ" فهو كلام وليس كلماً[3].

5-4-القول:أمّا القول فهو عام يعم الكلام والكلم والكلمة،« فكل كلام أو كلم أو كلمة قول ولا عكس»[4].

---

[1] -ينظر شرح شذور الذهب،ص23

[2] -شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك،ج1،ص19، 20

[3] -ينظر المصدر نفسه،ص20، 21

[4] -شرح الأشموني على الفية ابن مالك ،الأشموني،تأليف محمد محيي الدين عبد الحميد،دار الطلائع،القاهرة،2014م،ج1،ص23